

الذى عطّل الدين

للأستاذ عبد المنعم خلاف

—»»»»»—

ما رأيت شيئاً أضر الحياة وأضر الدين وحال دون شيوعه في الناس مثل ما عطّله الإيغال فيه والاستنزاق في معانيه حتى يصير بعيداً عن متناول عقول أكثر الناس ومتناول جهلهم المحدود وإحساسهم بالحياة ... ويبني لقواد الاجتماع ألا يخطوا خطوة عامة في رحاب الفكر الاجتماعي إلا وهم مقدرون أن جمهور الإنسانية يستطيع أن يخطوها وراءهم.

وقد كان نتيجة ذلك الإيغال أن حياة أكثر الناس انفصلت عن حياة الدين وأجهت إلى مجرى المادية الصماء — وهو المجرى

المروءات حتى لا ننكر الأمر النكسر ، أم خارت العزائم ، وانخلعت القلوب حتى لا نجرؤ على المجرم الظالم ؟ وهل نامت الحكومة في الشام نومة أهل الكهف حتى ما تدرى بالدم يسيل في شارع من أكبر شوارع دمشق ؟

لقد سكّ الجوع ، حتى أن أنباء القتل قد ناموا عن دمه ، وقعدوا عن الثأر له ، ولم يتقدم أحد منهم شاكياً ولا مدعياً لأن القاتل كما قالوا ، عازم على ذبحهم كلهم إن قدر عليهم ، وماضيه حافل بأمثال هذه الجرائم .

فما سرّ هذا السكوت ؟

لقد علمت السرّ بدمٍ يا سادة ...

ذلك أن المسكين الشهيد كان خروفاً من خرفان الضحية ، وأن القاتل كان جزّار الحارة ، وأن الناس شاركوه في جرمه . فأكلوا لحم الديبج مشوياً ومقلياً ومطهياً ، وأكلت معهم ونسيت من طيب اللحم هذا الشهيد ...

هذه هي سنة الحياة ، يموت المسكين لنستمتع نحن بأكلة طيبة . فكلوا منه أنتم أيضاً هنيئاً ، واشربوا عليه مريثاً ، واشتغلوا بالأكل عن مطالبتي بالقصة ، وكل عام وأنتم بخير ! على المظالم

الظاهرى وحده — من غير أن يصحبها الروح السانى الذى يليق بعظمة تفرعاتها المادية وتشتيقاتها .

ولو أن الدين نظر إليه على أنه موقف لازم من مواقف الحياة كالأكل والنوم والرياضة والعلم الخ ... وسائر حياة المجتمع ، وقُوم على أنه « ركن مادي » فيها لا بد أن تقوم عليه كما تقوم على غيره من دعائمها كالتقانون وحفظ الأمن مثلاً ، ولم تلتصق به نزعات التصوف والانطلاق الشعري المشرقين ، وتصوير موقف الإنسان فيه موقف الفناء والإنكار للزعات المادية التي تستلزمها الحياة بالجسد ، والخروج من الدنيا بالسر والجوع والزهد واحتمرار الآلام قبل الخروج منها بالموت ... إذا لارت الحياة الإنسانية في تناسق بين جانبيها الروحي والمادي .

ولو علمنا أن الحياة سادقة أصدق من تلك الزعات الشاذة التي تجلّت في أفراد من التشائمين ، من كل من طلق الدنيا المأمنها أوزهداً في لذاتها ، لتغير الموقف العام ، فإن الحياة الإنسانية في مجراها العام أخذت الإنسانية كلها ، ونقلتها إلى رحاب الكرامات والتسلط والتسخير عن طريق العلوم الموضوعية ومكازم الأخلاق العملية لا الاستغرافات الذاتية الضيقة.

ولا يفرّتنا من شذوذ كل أولئك الصوفيين المفرقين ما تركوه من كلام شعري مزوّق جميل في طيوف وأشباح وأصداء لوجداناتهم المحرومة للوهلة التي تركت طرق الحياة الواضحة ، وأرادت أن تدرك الله الأعلى بمقولها المحدودة ، فكانت النتيجة الختمية لذلك المطلب هي بلبلة الخاطر وخفاء البيان واضطراب السير ...

إن الحياة المادية العلمية الظاهرة هي الحكم لصالح حياة الجماعة ، وهي الأفق الأول الذي أراد الله العظيم أن تتجلى فيه أسرارنا ونتائج خلقتنا ، ونتائج جهادنا فيها نتائج دائمة ثابتة ، يراها أطفالنا وجهالنا كما يراها علماؤنا وفلاسفتنا .

وأنا مؤمن بالإنسانية ذات اللطق الواقى المستمد من الطبيعة ، ناشدكم كلها عن طريق تكميل سيطرتها على الطبيعة وإدراكها للنفس إدراكاً علمياً وتحكماً في العمل تحكماً صالحاً . ومن الذى سار وراء الشذاذ من الصوفية والتشائمين وأخذ أخذهم في الحياة ؟ إنهم أقل عدد ، ومن صالح الأرض أن يكون

ومن المشاهد الغيبية ، ولكن لا يستطيعون إظهارها ، لأنها بضيق عنها نطاق النطق كما يقرر الغزالي .

وإني ما قرأت بيان صوفي إلا وجدته خيالا شعرياً جديلاً ، إن كان صاحبه قديراً ، ورديثاً إن كان صاحبه قاصراً كإيل الدهن ، وكثيراً ما أظفر بمثله من بيان أهل الدنيا السائرين على ظاهرها .

وتظهر قيمة القرآن العظيم حين أراه يأخذ المجتمع كله بمنطق وسط صالح للجاعات ، وحين أراه كتاب العدل والاتزان والاعتراف بالحياة المادية والحياة الروحية كأساس واحد لازم للحياة الإنسانية .

والعمل هو روحه ، لا الأمانى الشعرية ، ولا الأغاني الدينية ولا التماس « حسن التعليل » ولا الأماديج التي تتعلق ويتهرب بها صاحبها أو يتشفع بها ويعتذر في مسئولية إهمال الأعمال ، كذلك الماذير التي يتخذها الناس مع رؤسائهم الدينيين . والثواب والجنة الحسية والحسن والرضا والرحمة والاحترام والخير لدى الخير هي من أدواته كذلك في الدعوة وبجائزة الفضائل والطبايع السكرية لأنها منطلق الفرائض الصالحة والأخلاق المثلى . وكل أخلاق القرآن هي أخلاق أبناء الحياة بجزءها العاجل والآجل ، الصالحين لمارة الأولى ونموها والماملين لحياة الأخرى والرفعة والرفاهة الخالصة فيها .

وكل عقائد القرآن واضحة مأخوذة من منطق الاتصال بين الإنسان والله تعالى ؛ فلا حلول ولا وحدة ولا اتحاد ، وبين الله والطبيعة ، ومن موقف الخلافة في الأرض خلافة واسعة وانتدخل في شئوننا جميعاً ، لا التقليل من شأنها والحرب من مجابهة فتنتها كدار امتحان وكفاح وابتلاء . موقف الاعتراف بقيمة الجسد الإنسانى وسمو الروح الإنسانى ووجوب الجمع بينهما لصالح الحياة والفكر .

فَلَسْتَدِينُ اللَّهَ بِالْحَيَاةِ ، ولتتعبد بها هي ذاتها ، ولتتخذ منطقاً من سننها التي لا تتبدل وحقاتها التي لا تلتوى ، لأنها منطق الله ربنا وربها ، وما عرفنا الله إلا منها . فكيف نهملها ؟ وكيف نهملها أو نتجهل عليها ؟ فيها قوامها ، ومنها دينها .

ذلك كذلك ، إذ لو طأوهم الناس لمطلت الأعمال في الأرض ، ولم تتحقق الأعمال البارة التي للإنسان في المادة وأسرار الحياة

غير أن الإنسانية إن كانت طبيعية بسيرها هكذا فقد أساءت بإهمال جانب الروح فيها باعتباره دعامة أساسية في الحياة ذلك الإهمال الشنيع .

وربما يكون ذلك الأمر محتملاً في المصور السائفة ، عصور القصور والطفولة ، ولكن الآن يجب أن تدرك أنها بلغت دوراً لا يصح أن تسكت فيه على إهمال الجانب الروحي في حياتها باعتبار أنه « ركن حيوى » ودعامة نظامية لحياتها المادية ذاتها ، والحمد لله قد تحول كثير من أحلام الروحيين القدماء إلى أخلاق عملية عامة . والتصوف بمعناه العملى شئ سام عظيم في رياضة الخلق وتطبيع الأعصاب على السمر والخير وإيقاظ الضمير ، ولكنه بمعناه الشعرى الذى رآه في شعر بعض القوم ليس أخلاقاً ، وإنما هو أحلام وتأملات مستفرقة حادة للخلاص من الجسد لرؤية الحقيقة العظمى والخروج من نطاق الأرض لرؤية ما وراءها ، وهؤلاء قد لا يهتمون بالأعمال والأخلاق كالحلاج وغيره ؛ فواجب أن ننظر إليهم لا كرجال دين يسنون طرقاً ليسير الناس عليها ، وإنما كشعراء استهوهم المانى الدينية فأسرفوا فيها ، واستغرقوا وانطلق وجدانهم فيها كما استغرق أبو نواس في الخمر وبشار في اللذات الحسية ...

وقد ينظر إلى معانيهم على أنها انطلاقات في « فن الدين » أو موسيق في جوّه ليست ذات محصول ... وقد ينظر إليهم رجل الدين العالم بالعمل على أنهم صنّاع أحلام استهوهم إلى غير الطريق الجسمى . وكل فتح عظيم لهم وتسطيع الإنسانية أن تنتفع به ينتهى إلى « صواب الأحكام » عن طريق البيان ؛ لأنهم أطالوا التأمل وأدمنوا قلبهم النظر في وجوه الأشياء المختلفة . وهذا لا يتيسر لكثير غيرهم .

ولم يأت وصف لله تعالى على لسان أى مخلوق بما يخرج عن نطاق عمله تعالى وصفاته المثلة في الطبيعة التي تدرك بالقوى الواعية وبالحواس .

نعم قد تشرق عليهم لمعات من الأذواق الغريبة عن الحياة